"فرنسا ولبنان بعد مئة عام من التكافل" لميشال خليفة: من التأسيس إلى اليوم

باريس – "النهار"

يتناول الكاتب ميشال شدان خليفة في كتابه "فرنسا ولبنان مئة عام من التكافل" مرحلة تأسيس دولة لبنان سنة 1920 على يد فرنسا التي ناطت بها عصبة الأمم مهمة الانتداب على لبنان وسوريا، فيشير الى ان الهدف الرئيسي من توسيع مساحة لبنان الى ما هو عليه اليوم، كان انشاء "كيان للأقليات الدينية والاثنية"، خصوصا المسيحية منها في منطقة الشرق الأوسط، وترسيخ كيان جديد يكون بمثابة "بوابة" دخول لها الى العالم العربي الغني بالنفط حيث عكست الحرب العالمية الأولى حاجتها الماسة اليه.

ويلمّح الى ان جذور النفوذ الفرنسي في لبنان تعود الى العلاقات التاريخية معه والتي توطدت في عهد الملك لويس الرابع عشر بسبب عامل التجارة بين فرنسا والامبراطورية العثمانية. وقد عمد الملك الفرنسي الى تعيين لبنانيين من أسرة آل الخازن قناصل لفرنسا في لبنان بهدف اجتذاب سكانه المسيحيين ليما، وقد شجّع امير لبنان، فخر الدين الثاني الكبير هذا التقارب مع فرنسا بتقديمه مستودعا للتجار الفرنسيين في صيدا يُعرف بـ "خان الفرنج".

ويذكّر بان الانتداب الفرنسي على لبنان أدى الى زعزعة العلاقة المتينة التي كانت سائدة بين فرنسا ومسيحيي لبنان، إذ ان المفوضين السامين الذين كانت ترسلهم باريس الى بيروت، كانوا علمانيين مما أدى الى مواجهات بينهم وبين بطريرك الموارنة أنطون عريضة الذي أطلق عبارته الشهيرة: "فرنسا كالشمس عن بعد تنير لكنها عن قرب تحرق". وقد استغلت بريطانيا التي كانت تنافس فرنسا في المنطقة هذا الخلاف بين البطريرك والفرنسيين فنجحت باجتذابه اليها مع المعارضة السياسية ضد الانتداب الفرنسي، على رأسها بشارة الخوري وكميل شمعون. و اضطرت فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول الى إعطاء لبنان استقلاله سنة 1943 بعدما اعتبرت هذه المطالبة بمثابة "خيانة" من جانب الموارنة كون فرنسا كانت في وضع صعب وتتزح تحت الاحتلال الألماني.

ويكشف الكتاب عبر وثائق الخارجية الفرنسية ان الرئيس اميل اده حاول في اول انتخاب رئيس للجمهورية بعد الاستقلال خداع الفرنسيين، إذ عمد الى مناورة سياسية لدى ممثل بريطانيا في لبنان الجنرال ادوار سبيرز حيث اقترح عليه الآتي: من أجل انتخاب اول رئيس بعد الاستقلال يكون توافقيا، ينسحب هو ومنافسه بشارة الخوري من الترشح للانتخابات، مقابل ان يختار بشارة الخوري مرشحا توافقيا من لائحة يضع اسماءها هو. قبل الجنرال سبيرز وبشارة الخوري هذا الاقتراح. ولكن عشية الانتخابات، اكتشف المفوض السامي الفرنسي في بيروت جان ميللو ان المرشح الوحيد في هذه اللائحة المقرب من البريطانيين والذي سيختاره بشارة الخوري هو كميل شمعون، أكبر خصوم فرنسا في لبنان. فاضطر المفوض السامي الفرنسي الذي كان يحارب بشارة الخوري طوال الحملة الانتخابية الى ان يرجوه كي يترشح من جديد لمنع وصول شمعون الى الرئاسة الأولى.

ويشير الى ان الجنرال ديغول الذي عاش سنتين في لبنان ابان عهد الانتداب، كان يحمل مشاعر خاصة تجاه هذا البلد. وقد عمد الى حمايته خلال فترة حكمه حيث كان يخشى عليه من جيرانه في المنطقة خصوصا خلال حرب 1967 التي غيرت وجه المنطقة كليا، وكذلك حين اعتدت إسرائيل على مطار بيروت ودمرت الطائرات اللبنانية في مدرجه، مما دفعه الى فرض حظر شامل على بيع الأسلحة الفرنسية لها. وقد ساهم الجنرال ديغول في عهد الرئيس فؤاد شهاب عبر المساعدات المالية لهذا البلد في تحديث البنى التحتية والمؤسسات الإدارية والتنظيمية فيه، وواصل ذلك مع الرئيس شارل حلو الذي كان يُعتبر اكثر رؤساء لبنان تقربا وميلا للفرنسيين.

وينوه بان حاجة فرنسا الشديدة الى النفط دفعت خليفة ديغول، جورج بومبيدو الى انفتاح كبير على العالم العربي وإن كان ذلك على حساب لبنان، الى درجة ان باريس خشيت في الانتخابات الرئاسية اللبنانية سنة 1970 وصول سليمان فرنجية المدعوم من زعماء "الحلف الثلاثي" المسيحيين، الى سدة الحكم، فحاربته خوفا من ان يسيء الى علاقاتها مع العالم العربي وبخاصة مع دول الخليج النفطية.

ويعتبر ان حرب تشرين 1973 التي حقق العرب في بدايتها انتصارا سريعا على القوات الإسرائيلية شكلت تحولا كبيرا في السياسة الدولية في المنطقة، إذ ان إسرائيل التي كانت تعاني من خسائر وتقهقر، هددت باستعمال صواريخها النووية ضد مصر وسوريا، مما اجبر الولايات المتحدة على الإسراع بالتدخل الفوري وبكل ثقلها الى درجة إعلان حال الطوارئ لقواتها النووية في العالم، بهدف ابعاد الاتحاد السوفياتي عن مسرح الشرق الأوسط. وإيقاف التقدم العسكري العربي. وقد نجح وزير خارجيتها هنري كيسينجر في إطار رحلاته المكوكية بين الأطراف المتنازعة في وقف تداعيات هذه الحرب. لكن حرب 1973 تركت انعكاساتها على لبنان، إذ ان الفلسطينيين فيه بدأوا منذ ذلك الوقت يكثفون استعداداتهم العسكرية ضد إسرائيل متخذين من بيروت قاعدة رئيسية لهم. وقد أدت الاصطدامات المتكررة بينهم وبين عناصر الجيش اللبناني الى نشوء تباعد ونفور بين المكونين الرئيسيين في هذا البلد، المسلمين والمسيحيين، مما نتج عنه اندلاع الحرب الاهلية فيه سنة 1975.

ويضيف ان الحرب اللبنانية التي استمرت حتى عام 1990 كانت تغطية لعملية السلام بين مصر واسرائيل واغراق سوريا وإلهائها في مشاكل لبنان في وقت حاول الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان إيجاد "مصالحة" بين الطرفين المتحاربين فيه، لكن فشله في إرساء أرضية تفاهم بينهما، دفعه في ما بعد الى ترك لبنان في عمدة سوريا بهدف الحفاظ على وحدته ومؤسساته الدستورية، خصوصا لجهة تأمين استمرارية انتخابات رئيس جمهوريته حتى لو كان ذلك تحت وصاية سورية.

ويلفت الى ان الرئيس الاشتراكي فرنسوا ميتران، خليفة جيسكار ديستان، كان همه الأكبر ان لا تؤدي الحرب اللبنانية الى انفجار حرب عالمية نووية. وقد أدى تفجير مركز الجنود الفرنسيين (دراكار) في بيروت ومقتل 85 جنديا الى تراجع فرنسا عن مواصلة مساعيها والى انحسار نفوذها في هذا البلد.

وكان ميتران أكثر رؤساء فرنسا دفاعا عن الفلسطينيين معتبرا ان كل شعب له الحق بان يكون له وطن، مما أدى الى خلاف شديد بينه وبين إسرائيل بسبب دعوته الى انشاء دولة فلسطينية الى جانب إسرائيل. كما كان ميتران اول رئيس فرنسي يزور سوريا منذ استقلالها، معتبرا انه لا يمكن إيجاد سلام في المنطقة من دونها. وقد دعم اتفاق الطائف سنة 1990 يقينا منه بانه المخرج الوحيد لإنهاء الحرب اللبنانية التي تحولت في النهاية حربا بين المسيحيين أنفسهم.

ويلمح الى ان خليفة ميتران جاك شيراك هو عرّاب الجمهورية الثانية في لبنان التي بدأت بعد اتفاق الطائف حيث رسّخ كيان لبنان مجددا بعد اعتماده ركيزة للفرنكوفونية في الشرق الأوسط، كما ساند بقوة مساعي صديقه رئيس الحكومة رفيق الحريري في تركيز أسس هذه الجمهورية، وفي طليعتها تقاسم السلطة التنفيذية مناصفة بين الطائفتين الإسلامية والمسيحية. ويضيف ان شيراك اتبع المنهج الديغولي نفسه الذي سار عليه رؤساء فرنسا بعد ديغول تجاه العالم العربي، فساند القضية الفلسطينية والنظام العراقي بهدف اجتذاب الدول العربية النفطية. وقد نجح في التقريب بين اللبنانيين وفي إطلاق معالم لبنان جديد على أسس التعاون والتسامح. و مارس شيراك ضغوطا شديدة ومتواصلة حتى نجح بإخراج إسرائيل من لبنان سنة 2000 وسوريا سنة 2005. وسعى شيراك الى إعادة اعمار لبنان مع رفيق الحريري، فنظم لهذا الهدف ثلاثة مؤتمرات دولية في باريس لجمع المساعدات له وبناء ما هدمته الحرب اللبنانية.

ويشير الى ان الرئيس نيكولا ساركوزي، على عكس سلفه شيراك الذي تقرّب من المملكة العربية السعودية، انحاز الى قطر ولعب دور "العرّاب" في اعتراف سوريا رسميا بلبنان وانشاء علاقات دبلوماسية معه. ويلمّح الى ان رغبة ساركوزي في إنشاء منتدى "الاتحاد من أجل المتوسط" تزامنت مع ميل قطر للعب دور سياسي واعلامي بارز في العالم العربي والإسلامي، مما أدى الى تقارب بين فرنسا وقطر أفضى الى توسيع الاستثمارات القطرية بشكل واسع في فرنسا. وقد انعكس هذا التقارب الفرنسي - القطري بشأن لبنان في ما بعد من خلال تنظيم مؤتمر الدوحة سنة 2008 حيث نتج عنه إعطاء الشيعة في لبنان حصة أكبر في الحكومة عُرفت في ما بعد بـ"نسبة الثلث المعطل" مما اعطى الطائفة الشيعية نفوذا سياسيا أوسع في البلاد.

ويشير الى ان خليفة ساركوزي، الاشتراكي فرنسوا هولاند، عاد فحوّل مجددا بوصلة فرنسا باتجاه المملكة العربية السعودية التي وضعت آمالها عليه لدعم الثورة السورية ضد نظام الرئيس بشار الأسد. وقد قام هولاند بزيارة لبنان سنة 2016 بعد سنة من العمليات الإرهابية التي نفذتها "داعش" بغزوة باريس وأودت بمئات الضحايا حيث أكد ان "أمن لبنان هو أيضا أمن فرنسا".

ويضيف ان الرئيس الفرنسي الحالي ايمانويل ماكرون يبدي تمسكه، على غرار كل أسلافه، بوحدة واستقلال وسيادة لبنان معلنا ان فرنسا "لا تتخلى عن لبنان"، وقد رفض الانحياز الى أي طرف محلي او إقليمي او دولي في أحداث لبنان حيث حاول البقاء على مسافة واحدة منها، رافضا ضغوط الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا عليه لتصنيف "حزب الله" إرهابيا، إذ يحاول ان يلعب دور "الوسيط" بين الأطراف المتخاصمة في لبنان والمنطقة.

ويستطرد بان فرنسا التي تعتبر حامية المسيحيين في الشرق، باتت تواجه اليوم روسيا التي تريد أيضا ان تلعب دور حامي الأقليات المسيحية في الشرق عبر المسيحيين الأرثوذكس المنتشرين في شتى دول المنطقة. وقد بدأت روسيا التي ركزت قواعد عسكرية لها في سوريا، تتغلغلها في لبنان بدءا من شماله، خصوصا ان زعيم أكبر حزب مسيحي لبناني، جبران باسيل، الذي فرضت عليه واشنطن عقوبات، اتجه نحو موسكو مطالبا اياها بلعب دور أكبر في لبنان.

ويخلص الى ان ماكرون يواجه في لبنان المعضلة الرئيسية فيه وهي عدم تفاهم الأقليات الطائفية الأربع المكونة لهذا البلد: المسيحية والسنية والشيعية والدرزية حيث تسعى كل منها الى بسط نفوذها على غيرها مما أدى الى شلل خطير في كل مرافقه بات يهدد مصيره ووحدته. ويعتبر ان لبنان لم يتمكن من ان يصبح "دولة – امة" لأنه كانت تنقصه ركيزتان اساسيتان: الشعور الوطني الذي يتوجب ان يكون اقوى من الشعور الديني، واندماج شعبه "كمواطنين" لا "كأتباع طائفة"، إذ وراء كل زعيم سياسي لطائفة من مكونات لبنان هناك زعيم ديني بجانبه، يعمل على ارشاده وتوجيهه والضغط عليه.